على هامش الفلسفة

الحقائق الأخلاقية

للأستاذ محمد يوسف موسى
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

ليس من الحق برغم ما سقناه فى الكلمة السابقة من الشواهد على اختلاف الآراء والأفكار الأخلاقية تبعاً لاختلاف الأمم والشعوب والزمان والمكان — ليس من الحق مع هذا كله أن ننكر أن هناك حقائق أخلاقية عامة سايرت العُصُر وسادت فى جميع البيئات

ذلك أنه من السهل أن نلاحظ أن الناس على ما بينهم من اختلاف مرجعه الجنس والبيئة والزمن يمثلون لما يعتقدونه واجباً على أوجه مختلفة ، وقد تتباين كما رأينا أحياناً ؛ ولكنهم جميعاً يقبلون فى قرارة أنفسهم فكرة الواجب ويعتقدون أن بعض الأعمال أعلى خلقياً من البعض الآخر . الكل يعلم أنه يوجد خير وشر ، ويحس الاحترام لبعض الناس والاحتقار لآخرين . الرجل الساذج فى إفريقيا وأستراليا فى خضوعه لتقاليده العجيبة وعده ذلك واجباً ، والمجرم الذى لا يخلف ما وعد بعمله من مآثم ومناكر ، والذى يرى نفسه ملزماً من نفسه بعدم خيانة عصابته ؛ أولئك جميعاً عندهم خلقية مشابهة فى صورتها لا فى مادتها ومحتواها لخلقية الرجل الفاضل من هذه الناحية ، ما دام الجميع يرون القيام بالواجب أمراً مقضياً . ليس علينا إلا إثارة عقول هؤلاء المساكين الذين يخضعون هذا الخضوع الأعمى لتلك التقاليد الظالمة ، وتفهيمهم أى الأعمال تعتبر واجبات يجب أن يقوموا بها ويعدوا تنفيذها أمراً إلزامياً

هذا التحقق وهو أنه يوجد لدى جميع الناس بلا استثناء منذ ابتدأوا يفكرون ويعملون نظريات وعواطف أخلاقية ، يجيز لنا أن نصف فكرة الواجب والخضوع له وعدّ من يقوم به خيّراً بأنها حقيقة أخلاقية عامة . ثم على رغم هذا الاختلاف الذى لا ريب فيه بين ما يسمى واجباً هنا وواجباً هناك ، ليس من النادر أن نلاحظ تماثلاً بين بعض النظريات الأخلاقية لدى جميع الناس . إنه من العسير بل من المستحيل أن تذكر وسطاً أو عصراً يعتبر الجبن فيه أفضل من الشجاعة أو الظلم أفضل من العدالة . العدالة اختلف الناس فى فهمها وطبقت بطرق متغايرة فى الأمم المختلفة ، هذا حق ؛ ولكن الرجل العادل كان ولا يزال محترماً دائماً لعموم فكرة اعتبار العدالة فضيلة خلقية

الرجل الذى على الفطرة ، بل الطفل الغرير ، يقبل بطيبة خاطر عقاباً يعتقد عدالته ، ويثور فى نفسه على عقاب يراه ظالماً . ذلك معناه تأصل فكرة العدالة لدى الجميع ، العدالة العامة التى يحسها الناس جميعاً ويحنون لها الرءوس إكباراً وإجلالاً ، لا العدالة القانونية المدونة فى بطون كتب القانون والتى تتغير بتغير البيئات . وفى هذا يقول مُونْتانى Montagne[1] الشاك الذى يرفض كل ما لم يقم عليه دليل لا ريب فيه : « العدالة فى نفسها الطبيعية العامة، فيها من النبل ما ليس فى العدالة الخاصة الأممية التى تنفذ عند الحاجة بسلطة الشرطة ورجال الأمن العام » كذلك « فولتير » نراه يدلل على عمومية عاطفة العدالة ، بعد أن يبحث الأمر بحثاً دقيقاً ، بدليل مقنع إذ يقول : فكرة العدالة تظهر لى حقيقة من الطراز الأول ، يقبلها الجميع ويشعرون بوجوب احترامها ، حتى إن أكبر الجرائم نراها ترتكب تحت حجة باطلة من العدالة . الحرب ، وهى أكبر الجرائم الهدامة التى تتعارض والغرض الإنسانى النبيل وهو المساعدة والتساند ، يجتهد فى تبريرها من يشعل نارها أولاً بحجة الدفاع عن العدالة[2] »

لا أرانى بحاجة لتدعيم هذا الرأى الذى يذكره « فولتير » ، فالحوادث التى تتوالى أمام أعيننا منذ سبتمبر الماضى للآن تؤيد لأقصى حدود التأييد هذا الرأى . لقد أنذر هتلر العالم بحرب ضروس دفاعاً عن السوديت وحقوقهم المهضومة كما زعم ؛ واليوم يلعب هذه اللعبة موسيليني دفاعاً عن حريات الإيطاليين وحقوقهم ومصالحهم المهدرة فى تونس وغيرها كما يقول ! وقبل ذلك استعمر الشرق والأمم المستضعفة تحت ستار من العدالة أوهى من بيت العنكبوت !

وإذا كان من الحق اعتبار العدالة حقيقة عامة أخلاقية فكذلك عاطفة الضيافة والكرم ، تلك العاطفة السامية التى تنبئ

(١) أحد مشاهير الفلاسفة والأخلاقيين الفرنسيين (١٥٣٣ — ١٥٩٢ م) خلدته « Ses Essais » أى « التجارب » التى منها هذه الفقرة فى الكتاب الثالث الفصل الأول .

(٢) من مؤلفه : « الفيلسوف الجاهل Le Philosophe ignorant »

بالإخاء الإنسانى ، بحدها ممدوحة موصى بها فى كل الأوساط والأزمان ؛ الأمم تعيّر بالبخل وتتمدح بالكرم إذا جدت دواعيه

وليس عجيباً أن ترى تقارباً بل اتفاقاً على كثير من الآراء والصفات الأخلاقية ؛ بل لعل العجيب ألا يكون مثل هـذا الاتفاق . ذلك أن الناس ، تقدم بهم الزمن أو تخلف ، السامى والآرى والشرقى والغربى والأسود والأبيض ، أى هم جميعاً لديهم معين للأخلاق يكاد يكون واحداً ، أو هو واحد فى أصله وإن اختلف فى بعض التطبيقات تبعاً لاختلاف الأزمان والبيئات ؛ ذلك المعين هو الضمير .

وفى هـذا يقول العلامة بارتلمى سانتهلير مترجم أرسطو من اليونانية للفرنسية فى مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو : « ولنؤكد من غير أن نخشى الزلل أن حقائق علم الأخلاق فى الساعة الراهنة عند الأمم المتمدنة ليست منذ الآن محلاً للجدل بين النفوس الفاضلة ، وأن تلك الحقائق لا خوف عليها . يمكن أن يقع الجدل فى النظريات ، ولكن لأن سلوك الناس الأخيار هو فى الواقع واحد ، يلزم حتماً أن يكون بينهم قدر من الحق مشترك يستند إليه كل واحد منهم من غير أن يستطيع مع ذلك فى الغالب أن يقف غيره عليه ولا أن يدركه هو نفسه . ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب بعينه مهما أجيدت ومهما بلغت من الحق ، ولكن من الأفعال ما هو مقر عليه عند جميع الناس ؛ وبيّن أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادئ مسلمة عند الجميع ؛ وتقع على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها فى غالب الأحيان »[1]

ثم يقول فى موضع آخر : غير أن قانون الأخلاق ليس قانوناً شخصياً بل هو قانون عام ، قد يكون فى ضمير أشد قوة وأكثر وضوحاً منه فى ضمير آخر ، ولكنه موجود فى كل الضمائر بدرجات تختلف قوة وضعفاً . إنه ليناجى جميع الناس بلهجة واحدة ، وإن كانت أفئدتهم لا تصغى إليه على السواء . ينتج من ذلك أن قانون الأخلاق ليس فقط قاعدة للفرد بل هو أيضاً العامل لوحدة الروابط الحقيقية التى تربط الفرد بأمثاله . لئن كانت الحاجات تقرب بين الناس فإن المنافع تباعد بينهم إذا لم تكن تذكى بينهم نار الحرب . فلولا الاتحاد الأخلاقى لكانت الجمعية البشرية محالاً[1]

ولعمر الحق إن هذا لا يحتاج إلى أى تعليق لبيان صحة ما فيه من آراء . فهناك كثير من المبادئ الأخلاقية مسلمة بشهادة الواقع من الجميع لصدورها عن معين واحد ، قد يختلف قليلاً أو كثيراً بعض الأحيان ، لكنه واحد على كل حال

على أن التاريخ يكشف لنا أمراً آخر يجب أن يكون موضع تقديرنا وأن نعلق عليه أهمية لها خطرها : المثل الأعلى الأخلاق يقاسى الكثير من التقاليد فى بعض الأزمنة والبيئات ، هذه التقاليد التى تراها حجر عثرة فى طريق المصلحين دائماً . تصفح تاريخ أمة من الأمم تجد فى فترات مختلفة سعدت الإنسانية ببعض كبار الأحلام والفكر الراجح الذين كانت رسالتهم معارضة للتقاليد الضيقة التى تسيطر فى أيامهم بمثل عليا رحبة صالحة للجميع . حقا إن الرأى العام كان يقف ضد هؤلاء المباقرة ، إلا أن المستقبل كان يحكم بأنهم على حق فيما بشروا به ، كما أن الإنسانية باركت هذه الثورات ، الثورات المدينة لها بخلقية أعلى وأفضل ، وأذاعت فى جنبات الأرض أن هؤلاء الذين ثاروا على التقاليد هم النبلاء المحسنون للانسانية عامة

ولعل من الخير ومن الواجب أن نلاحظ أن تلك التقاليد الدينية أو الاجتماعية التى عارضها أولئك المصلحون كانت مختلفة أشد الاختلاف فيما بينها ، وأن هذه الآراء الأخلاقية ، والمثل التى كانوا يدعون لها فى الأزمنة المختلفة والبيئات المتعددة تعطينا مشابهة مدهشة عجيبة وانسجاماً خارقاً يجيز لنا أن نقدر أنهم كانوا يصدرون عن معين واحد فيما وقفوا أنفسهم على تحقيقه . وموعدنا ببيان ذلك الكلمة الآتية إن شاء الله .

محمد يوسف موسى

* * *

وقع خطأ فى مقالنا الذى نشر بالعدد ٢٩١ — المهارة فى الفن وصوابها : المهارة فى الغش .

(١) كتاب الأخلاق لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفى السيد باشا ص ٧

(١) المرجع نفسه ص ١٦